

لمحات من تاريخ القضارف (1504 – 1885 م)

أستاذ مشارك – قسم التاريخ – كلية التربية
جامعة الزعيم الأزهرى

د. قسم السيد حمزة احمد برير

المستخلص:

يهدف هذا البحث لإلقاء الضوء على ملامح تاريخ القضارف خلال فترتي الفونج والتركبة . وتكمن مشكلة البحث في كون أن تاريخ القضارف رغم أهميتها الاقتصادية لم ينل اهتمام الباحثين وتأتي أهميته من خلال إيماءته اللثام عن تطور القضارف ومؤهلا عبر القرون . اتبع هذا البحث المنهج التاريخي الوصفى التحليلي للوصول لنتائج علمية . واتضح من خلال الدراسة ان القضارف مدينة قديمة ذات تاريخ عريق وثقل اقتصادي وأهمية إستراتيجية . وأوصت الدراسة بضرورة الاهتمام بدراسة تاريخ المدن في السودان وتاريخ القضارف الاقتصادي .

Abstract :

The study aims to give a portrait of the history of Gadaref during Funj Sultanate and Turkiyya. The significance of the study lies in the fact that Gadaref, though possesses great economic potential, was neglected by historians. Its importance emerges from the fact that it reveals its development through centuries. The study adopts historical analytic descriptive approach to obtain sound findings. Chief among those findings is that Gadaref was an old city which enjoys economic and strategic importance. The study recommended further studies about the history of Sudanese towns and economic history of Gadaref.

مقدمة :

تعد دراسة المدن والبحث فيها من الدراسات الممتعة رغم الصعوبات التي تكتنفها ولا تقوم المدن بمحض الصدفة أو دون مبررات، بل في الغالب الأعم نتيجة لتفاعل عوامل تجارية وإدارية وسياسية ودينية، وترجع نشأة المدن في السودان إلى فترة ما قبل التاريخ⁽¹⁾. إن العامل التجاري هو العامل الأساسي في نشأة مدن السودان يليه العامل الإداري. ويأتي العامل التجاري نتيجة طبيعية لموقع المدينة الجغرافي سواء على ساحل أو طرق قوافل. وقد ظهرت عدة مدن على طريق القوافل. ففي دارفور نجد كوي تقع في نهاية درب الأربعين الذي يربط مصر مع دارفور. وفي الشمال بربر وشندي حيث يوجد طريق يربطهما بسواكن والجزيرة العربية. وظهرت كل من الخرطوم وأم درمان لعامل إداري. وظهر أثر العامل الديني في قيام مدن مثل ود مدني حول قبة الشيخ محمد مدني، ومدينة الأبيض التي كانت نواتها الأولى من إتباع الطريقة الإسماعيلية، ووجود عائلة الشيخ أبو صفية في نفس المنطقة⁽²⁾. وقد قامت مدينة القضايف لعوامل إدارية وتجارية. ففي أيام الفونج كانت عاصمة لإقليم اتبرا، كما أنها تقع وسط منطقة زراعية غنية ولذلك أصبحت سوقاً تجارياً مهماً للمحاصيل الزراعية. وساعدها موقعها الجغرافي الحصين أيضاً، من إذ تحيط بها سلسلة من التلال تجعل الدفاع عنها ضد الغارات الخارجية أكثر يسراً. ومما ساعدها على النمو موقعها الجغرافي الذي جعل منها ملتقى للطرق التجارية. ورغم إمكاناتها الاقتصادية الضخمة، إلا أنها لم تصنف مركزاً تجارياً مهماً أيام الفونج مثل مدني، أربجي، شندي وبربر وسواكن⁽³⁾. وخلال التركيبة اكتشف الأتراك والوافدون معهم مميزاتها الاقتصادية فكان ذلك سبباً لاستقرارهم بها. أما في المهديّة فقد اكتسبت أهمية إستراتيجية وإدارية بسبب العلاقات بين المهديّة والحبشة، كما أصبحت مصدراً أساسياً لتوفير الغذاء لجيش الخليفة.

تسمية القصارف:

لعل من أكبر التحديات التي تواجه الباحثين في تاريخ السودان مسألة أسماء المدن والقرى. ورغم احتفاظ الكثير من المناطق بأسمائها القديمة ذات الطابع النوبي، والتي ترجع إلى فترة ما قبل دخول العرب السودان، إلا أن هناك أسماء مدن ذات طابع عربي ظهرت مع دخول العرب السودان مثل رفاعة والهالية وغيرها. وبما أن السودانيين أمة شفاهية لا تجيد التوثيق وفي إطار بحثهم المحموم لإثبات عروبتهم من خلال النسب وأسماء البلدان، جرت محاولات لتعريب أسماء المواقع والمدن القديمة. وأحدثت هذه الخطوة خلطاً وخللاً صاحبه بعض السخف في تفسير أسماء المدن السودانية⁽⁴⁾. فقد تم تحويل اسم الخرطوم من اسمها القديم كير التوم، الذي ربما يكون شلكاويًا، والذي يعني التقاء النهرين أو خورين إلى الخرطوم⁽⁵⁾ وينطبق هذا على أم درمان وعطبرة وشندي والتي حاول البعض ربط اسمها بأحد أبناء عبد الله جماع. وبالنسبة للقصارف هناك خلط كبير بين إسم المدينة والمنطقة، ورغم أنه من غير المستبعد أن يكون إسمها إسمًا نوبيًا قديمًا إلا أنه هنالك روايات تحاول إضفاء طابعاً عربياً عليه، استناداً إلى طبوغرافيا وتضاريس المنطقة، فعندما يأتي الزائر إلى مدينة القصارف ويرى من على البعد الهضاب الهشة المحيطة بها في شكل دائري، يهتف قائلاً «القصاريف ظهري»⁽⁶⁾.

لم يرد إسم القصارف بالنص في وثائق الفونج، رغم أن مدينة القصارف الحالية والتي كانت تعرف بتواوا وقتذاك، كانت عاصمة إدارية لأحد أقاليم السلطنة. وأهم الأقاليم التي ظهر أسماء حكامها وألقابهم في وثائق بلاط الفونج هي البحر، القربين، التاكا وأتبر⁽⁷⁾ ولعل أقدم إشارة إلى اسم القصارف تلك التي أوردها ود ضيف الله ضمن سيرة الشيخ بدوي أبو دليق⁽⁸⁾. فقد روى الشيخ صالح بان النقا وهو أحد أقطاب القادرية في السودان أنه سافر مع الشيخ بدوي إلى القصارف⁽⁹⁾ وفي ختام حديثه عن الشيخ بدوي أبو دليق قال صاحب الطبقات (أنه توفي سنة ثمانية عشر بعد المائة والألف)⁽¹⁰⁾. ويستشف من هذا الكلام أن القصارف بلدة معروفة قبل وصول القبائل العربية وإسمها نوبيًا، فإذا كان الشيخ بدوي الذي زار القصارف في حياته توفي سنة 1118 هـ أي قبل أكثر من ثلاثمائة سنة من الآن، فهذا يعني إنها منطقة قديمة تأسست قبل قيام سلطنة الفونج وربما منذ أيام ممالك السودان القديمة. ومما يثير دهشة المرء أن كل الرحالة الذين زاروا سنار في أواخر القرن السابع عشر وخلال الثامن عشر أمثال ثيودور كرمب البافاري والفرنسي بونسيه لم يشاروا إليها بالمره. والاستثناء الوحيد هو الرحالة الاسكتلندي جيمس بروس الذي زارها وأشار إليها باسم تيوا Teawa واستناداً على هذا يبدو أن اسم القصارف كان ينصرف إلى المنطقة كلها ولم يكن اسم لموضع معين. ومما يدل على أن القصارف اسماً للمنطقة وليس لموقع بعينه كثرة الأسماء في المنطقة مثل تواوا وسوق أبو سن وسرف البوادرة والكنارة وغريقانة وعصار⁽¹¹⁾. وهذا يعني أيضاً أن إسم سوق أبو سن وقضروف سعد أسماء حديثة ظهرت مع التركة، لأن

الشكرية لم يكن لهم وجود في المنطقة قبل أواخر القرن الثامن عشر، أما سعد القبطي فقد جاء بالقطع مع التركية . ومما يلفت النظر ان القضايف أيام الفونج لم تكن تحكم بواسطة الشكرية ولا الضباينة وإنما جهيئة . وتشير المراجع إلى ان وجود الضباينة في منطقة القضايف أسبق من الشكرية مع بعدهم عن العاصمة تواوا ، وإنهم كانوا يهاجمونها بالتحالف مع المور (مسلمي الحبشة⁽¹²⁾). ويبدو أن الشكرية لم يسيطروا نفوذهم على المنطقة إلا في الربع الأخير من القرن الثامن عشر وبعد معركة المندرة عام 1779 م.⁽¹³⁾ وتأسيسا على كل ما ذكر آنفا فان اسم القضايف لم يطلق على المدينة بصفة رسمية إلا في التركية .

قدم جيمس بروس وصفاً لتواوا عند مروره بها عام 1772 م في طريقه إلى سنار فقد أشار بنحو غير دقيق ان الشيخ فضيل هو شيخ أثرا.⁽¹⁴⁾ وقدر عدد السكان بحوالي ألف ومائتين من الاعراب البائسين أما تواوا فقد كانت مقرا للحكومة مما جعلها تتميز بدرجة معينة من التقدير⁽¹⁵⁾ أما مسكن شيخها فضيل حسب وصف جيمس بروس فيتكون من (مجموعة من بيوت مصنوعة من القصب ، بالقرب من الطريق ، عند المدخل ، كانت هناك قاعة كبيرة مبنية من الطوب اللبن ، وكنا نصعد إليها بواسطة أربع او خمس درجات ، وكان في وسطها كرسي خالي يمثل رمز السيادة الذي قدمت له فروض الولاء والطاعة. عبارة عن رسوم جمركية غير محصورة فقط على تواوا او القرن الثامن عشر.⁽¹⁶⁾ .

تجارة القضايف :

تمتعت القضايف بأهمية تجارية ويتضح ذلك من خلال شبكة الطرق التي تربطها بمختلف المناطق داخليا وخارجيا ومن أهم هذه الطرق :

أ/ طريق القضايف - القلابات :

استخدم هذا الطريق بواسطة بعض التجار ورجال البعثات التبشيرية المختلفة الذين يأتون من مصر إضافة إلى أهل الجزيرة وشمال السودان وحجاج السودان الغربي ويتميز هذا الطريق بوجود مجموعة من المدن والقرى ، أهمها مدينة دوكه، التي كانت تعتبر حلقة الوصل بين إقليمي القضايف والقلابات، لأنها تتوسط هذا الطريق، ويقال إنها كانت في السابق مركزاً هاماً من مراكز تجارة الرقيق . ويتميز هذا الطريق بوفرة المياه العذبة في بعض مناطقه مثل راشد وأم فرحة .

ب/ طريق سنار - بيلا - القضايف - القلابات :

يبدأ بعد عبور النيل الأزرق من سنار ثم يتجه شرقاً حتى نهر الدندر، ثم نهر الرهد، ثم يتجه شرقاً إلى بيلا ومنها إلى القضايف، وهو الطريق الذي سلكه جيمس بروس عند عودته من الحبشة إلى سنار . وأشار إلى قلة مائه بين القضايف وبيلا⁽¹⁷⁾ .

كان تجار القضايف يمدون سوق القلابات بالخيول والذهب والجبن والعسل والشمع .

ومن ناحية ثانية فإن تجار سنار كانوا يسافرون إلى القلابات عبر الصحراء تحاشياً لحاكم منطقة القصارف ، وخوفاً من بعض القبائل وقطاع الطرق ، « الشففة » نسبة لان حاكم أتبرا كان يمارس عمليات سلب ونهب على حساب أولئك التجار⁽¹⁸⁾. وقد تعرض جيمس بروس لابتزاز حاكم أتبرا (تواوا) فضيل الذي طلب منه خمسين أوقيه من الذهب. ورفض بروس هذا الطلب فحاول فضيل قتله بالسيف ولم ينقذه من هذه المؤامرة إلا سلاحه الناري الذي كان يدهسه وسط أكمامه⁽¹⁹⁾.

القصارف في التركية :

بسط الأتراك نفوذهم على القصارف ، وعلى العكس من جارتها كسلا، بسهولة ودون مقاومة تذكر. ففي أيام الغزو الأولي وبعد تعيين عثمان بك جركس البرنجي والياً على السودان، فرض على المواطنين ضرائب باهظة دفعت البعض منهم للهجرة إلى القصارف 1824 - 1825 . فما كان من عثمان بك جركس الذي اشتهر بالقسوة وسفك الدماء إلا ان أرسل خلفهم إبراهيم أفندي فقتل منهم خلقاً كثيراً⁽²⁰⁾.

خلف عثمان باشا جركس بعد وفاته محو بك الاورفلي مدير بربر حاكماً على السودان . وصادف تعيينه حاكماً لمجاعة بالجزيرة ، فذهب إلى القصارف وأرسل منها الذرة إلى المناطق المتأثرة بالمجاعة. وفي عام 1830 ضم خورشيد باشا أول حكمदार للسودان القلابات وحصنها وأقام فيها حامية عسكرية⁽²¹⁾ وفي عام 1837 غزا احمد كاشف حاكم القصارف وراشد أطراف الحبشة فغنم وسبى وأرسل السبايا إلى الخرطوم⁽²²⁾.

اكتشف الغزاة الجدد وأتباعهم منذ البداية إمكانيات القصارف الاقتصادية. وشجعهم مناخها وكثرة أمطارها على التوسع الزراعي. فالأمطار في هذه المنطقة تصلح لزراعة السمسم والقطن والذرة الذي يمثل الغذاء الرئيسي لسكان السودان⁽²³⁾.

شجع مناخ القصارف الوافدين على إدخال أنواع جديدة من المحاصيل مثل الفواكه والتبناك . وكان التجار الإغريق يقومون بزراعة التبناك طوال فترة التركية ، بل ان بعضهم أقام مصنعاً للسجائر⁽²⁴⁾ وقد وصل إنتاج التبناك السنوي ألف وخمسمائة ورقة .⁽²⁵⁾ لكل هذا أصبحت القصارف منطقة جاذبة وملتقي تجاري مهم ، يفد إليها التجار من داخل السودان وخارجه من بلاد مثل مصر والحجاز والهند والحبشة وأحياناً من أوروبا. واشتهرت القصارف بجانب الزراعة بالتجارة في ريش النعام وقامت بها بعض الصناعات الخفيفة مثل صناعة الصابون والسجائر. وقد بلغت الضرائب السنوية على التبناك مائة ألف ريال كانت تذهب كلها لخزينة الدولة.⁽²⁶⁾ وتعكس هذه الأرقام ثراء القصارف وقدراتها الاقتصادية الضخمة. لهذه الاعتبارات وجدت القصارف اهتماماً وعناية فائقة من الحكام الأتراك فأمدوها ببوستان منتظمة مع الخرطوم⁽²⁷⁾.

خلال التركية زار القصارف العديد من الرحالة أمثال هوسكنز وهيوجلين والمكتشف صمويل بيكر. وقدم صمويل بيكر الذي جاء إلى السودان أصلاً بغرض الصيد ، وأطلق عليها اسم القصارف ، وصفاً ممتعاً لسوقها . وذكر ان (هناك شارعاً مفتوحاً مسقوفاً بالقش ، وارتفاعه ستة

إقدام ، وكان التجار يعرضون بضائعهم أمام ذلك الشارع ، وكان من بين تلك البضائع الأقمشة القطنية التي يجلبها التجار اليونانيون ، والسيوف والمبارد والأمواس ، وأدوات معدنية أخرى ألمانية الصنع ، ومعظمها لا قيمة به⁽²⁸⁾. ومما لفت نظره كثرة الأكشاك التي خصصت للشطة والخرز والعلطور. ومن أهم السلع الأخرى المعروضة الزبد والسمن والحبال والسجاد والحقائب الجلدية والقرب. ولاحظ بيكر أيضا وجود حدادين متجولين يبيعون السكاكين ويصلحون الحراب. ومن أغرب ما أشار إليه وفي ظاهرة لم نعهدها كثيرا في السودان وجود راوي قصص محترف يمسك جملاً من مقوده خالقا جلبة وضجيجا من الضحك بنكاته⁽²⁹⁾. وذكر بيكر أيضا وجود سوق للمواشي بالقضايف يتردد عليه العرب والتكاريير والأحباش⁽³⁰⁾. وعند اندلاع الثورة المهدية ركزت الحكومة التركية مجهوداتها العسكرية في غرب السودان باعتباره معقل الثورة. وترتب على ذلك ضعف الاهتمام بالمناطق الأخرى وبخاصة منطقة القضايف والقلابات. وكان بالقضايف عند اندلاع الثورة مائتا جندي نظامي وأوردي من الباشبوزوق المغاربة بقيادة محمد باشا أغا . وكان محمد عوض الكريم أبو سن مأمورا عليها . ونقل إليها بلوك من القلابات ولكنه سرعان ما حول إلى عصار لتدعيم موقفها . وفي أبريل 1884 استسلمت القضايف لمبعوث المهدي الحسين عبد الواحد نور الدائم دون مقاومة نسبة لضعف حاميتها وبعدها عن مراكز الحكومة الهامة وبمعاونة القبائل المحلية وأهمها الشكرية وعين المهدي عبد الله احمد أبو سن عاملا عليها⁽³¹⁾.

الخاتمة :

جاءت هذه الدراسة كمحاولة لإلقاء الضوء على تاريخ مدينة القضايف خلال فترتي الفونج والتركية ، واتضح من خلالها ان القضايف مدينة عريقة ومهمة ولها تاريخ ضارب الجذور في القدم ، ربما منذ أيام الممالك السودانية القديمة كما إنها تتمتع بإمكانات اقتصادية ضخمة . وخلال سلطنة الفونج كانت عاصمة إدارية لأحد أقاليمها وملتقي تجارها هاما . وتبين لنا من خلال الدراسة ان اسم القضايف لم يكن يطلق على المدينة الحالية وإنما على المنطقة كلها ، ولم يظهر اسم القضايف بصفة رسمية إلا خلال التركية. وفي التركية اكتشف الأتراك والوافدون الأجانب ثراءها الاقتصادي فاستقروا بها كما أدخلوا بها زراعة المحاصيل الجديدة مثل الفواكه والتبناك وأقاموا بها بعض الصناعات الخفيفة.

نتائج الدراسة :

1. أثبتت الدراسة ان القضايف مدينة عريقة ومعروفة عبر القرون .
2. لعب العامل الاقتصادي دورا مهما في تطور ونمو مدينة القضايف.
3. لم تعرف القضايف باسهما الحالي إلا خلال التركية.
4. للقضايف أهمية إستراتيجية كبرى نسبة لقربها من الجارة إثيوبيا.

التوصيات :

- 1- ضرورة الاهتمام بتاريخ المدن في السودان .
- 2- إجراء المزيد من الدراسات حول تاريخ القضايف القديم والحديث.
- 3- الاهتمام بتاريخ القضايف الاقتصادي والإفادة منه في التبادل التجاري مع دول الجوار.

الهوامش:

- (1) Sudan Notes and Records , Volume 52 , Khartoum 1971 p.63.
- (2) خديجة عثمان زروق ، تاريخ مدينة كسلا في العهد الثنائي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الخرطوم ، 1971 م ، الصفحات من 16 - 21 .
- (3) Sudan Notes and Records op- CIT p.65.
- (4) محمد ابراهيم أبو سليم ، تاريخ الخرطوم ، بيروت ، دار الجيل ، الطبعة الثالثة ، 1991 م ، ص 6
- (5) المرجع السابق ، ص 7
- (6) التهامي عبد الله سليمان ، القصارف تاريخ ومجد وسؤدد ، الخرطوم ، دار فأس للنشر ، الطبعة الثانية ، 2015 م ، ص 20
- (7) جاي سبولدنق ، عصر البطولة في سنار ، تعريب احمد المعتصم الشيخ ، الخرطوم ، هيئة الخرطوم للصحافة والنشر ، الطبعة الثانية 2014 م ص 74
- (8) محمد النور بن ضيف الله ، كتاب الطبقات في خصوص الأولياء الصالحين والعلماء والشعراء في السودان ، تحقيق يوسف فضل حسن ، الخرطوم ، دار جامعة الخرطوم للنشر ، الطبعة الثالثة ، 1985 م ، ص 116.
- (9) المصدر السابق ، ص 116
- (10) المصدر السابق ، ص 123
- (11) أو . جي . إس كروفورد ، مملكة الفونج الاسلامية ، ترجمة البشير الصادق البشير ، الخرطوم شركة مطابع السودان للعملة المحدودة ، الطبعة الاولى ، 2017 م ، ص 147.
- (21) المرجع السابق ، ص 148
- (31) المرجع السابق ، ص 147
- (14) المرجع السابق ، ص 147
- (15) المرجع السابق ، ص 148
- (16) المرجع السابق ، ص 414
- (17) محمد المصطفى أبو القاسم إسماعيل ، هجرات التكاير واستيطانهم ببلاد السودان الشرقي فيما قبل القرن العشرين مشيخة تكاير القلابات، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة الخرطوم ، 1990 م ، ص 71
- (18) المرجع السابق ، ص 90
- (19) أو جي . إس . كروفورد ، مرجع سابق ، ص 414
- (20) نعوم شقير ، تاريخ السودان ، تحقيق ابراهيم أبو سليم ، بيروت ، دار الجيل ، طبعة جديدة 1981 م ، ص 213

- (12) المصدر السابق ، ص 216
- (22) المصدر نفسه ص 219 .
- (23) محمد سعيد القدال ، المهديّة والحبشة ، دراسة في السيادة الداخلية والخارجية للدولة المهديّة 1881 - 1898 ، بيروت ، دار الجيل ، الطبعة الأولى ، 1992 م ، ص 9
- (24) المرجع السابق ، ص 9
- (25) المرجع نفسه ص 10
- (62) المرجع نفسه ص 14
- (72) المرجع نفسه ، ص 14
- (28) او جي . إس . كروفورد ، مرجع سابق ، ص 148
- (29) المرجع نفسه ، ص 148
- (03) المرجع نفسه ص 148
- (31) محمد سعيد القدال ، مرجع سابق ص 25.